المحاضرة الخامسة: الحجاج والنظرية التواصلية

إن الحديث عن التواصل هو الحديث عن أحد الوظائف الأساسية للغة، فاللغة كما يعرفها كثير من أهل التخصص هي أداة للتعبير عما يختلج في صدور المتكلمين، ونقل الأفكار منهم وإليهم، وقد عرفت اللغة في كثير من المفاهيم على هذا المبدأ فنجد على سبيل المثال:

-ابن جني الذي يعرفها بأنها: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، وهذا التعبير عن الغرض هو تواصل لغوي ومقصدي بين المتكلم والمستمع، ولهذا فإن اللغة عنده إنما وجدت ليتواصل بها الناس فيما بينهم.

-دو سوسير: "هي نظام من الرموز الصوتية في أذهان الجماعة اللغوية يحقق التواصل بينهم، ويكتسبها الفرد سماعا من مجتمعه"[2] فدي سوسير ينظر إلى اللغة على أنها تلك الرموز المنطوقة وغايتها التواصل بين الجماعة اللغوية، وأن اكتسابها لا يتأتى إلا من خلال السماع وهذا السماع مرهون أصلا بالتواصل فلا يمكن للفرد أن يكتسب اللغة دون وقوع التواصل.

وعليه: فما مفهوم التواصل؟ وما علاقة الحجاج به؟

---

[1] ابن جني، الخصائص، تح محمد على النجار، دار الكتب، القاهرة، 1971، ج01، ص33.

[2] De Saussure F : cors de linguistique générale, Ed, prépare tullios de moro payothèque 1979, Paris, p 65.

مفهوم التواصل:

إن مصطلح التواصل وجدت له تعريفات شتى في البيئة العربية والغربية، فجون ديبوا يعرفه على أنه "تبادل لفظي بين ذات متكلمة ومنتجة للقول (énoncé) موجه إلى ذات أخرى متكلمة، وإلى مخاطب (محاور) يلتمس إجابة ضمنية أو معلنة"[3]، فلا يقع التواصل إلا من خلال وجود ذاتين متكلمتين، وهذا من أجل تبادل العلمية التواصلية.

أركان العملية التواصلية:

للعملية التواصلية مجموعة من الأركان هي:

المرسل: وهو من يبدأ العلمية التواصلية.

المرسل إليه: وهو الذي يتلقى الرسالة.

الرسالة: هي الشكل اللفظي وغير اللفظي.

القناة: هي الوسيط التي تنقل من خلاله الرسالة.

التغذية الراجعة "رد الفعل": هي كل ما يصدر من المتلقي من ردود أفعال تعبر عن تفاعله.

---

[3] عبد الله الحتوك، إشكالية التواصل وأركان العملية التواصلية، قضايا لغوية مج03، ع01، 2022، ص 99.

الحجاج وعلاقته بالنظرية التواصلية:

ارتبط الحجاج بالنشاط التواصلي ذلك أن الحجاج نشاط الاجتماعي قائم أساسا على العملية التواصلية، فلا يمكن أن يتصور وجود حجاج دون تواصل، فالحجاج بعده فعلا تواصليا يستلزم من المحاجج أن يقوم على احترام العلمية التواصلية وينتبه إلى التغذية الراجعة أي ردة الفعل، ذلك أن هذا الركن هو الذي سيحرك العلمية الحجاجية برمتها.

إن التغذية الراجعة في الأساس هي محرك العلمية التواصلية، إذ لولا ردة الفعل التي يسجلها المتكلم ما كان له أن يشكل خطابه، ولا أن تدوم العملية التخاطبية.

إن الحجاج يتشكل من خلال خاصية البناء والدينامية كون المحاجج يقوم على بناء خطابه وفق مقام المستمع وهذا البناء يكون وفق السياق الذي تنشأ فيه العملية الحجاجية بصفة عامة، ويمكن أن ننظر إليه كذلك من خلال تفاعل عناصر الخطاب الحجاجي ومكوناته لتنتج لنا في آخر المطاف حركية وديناميةتجعل العملية الحجاجية متواصلة.

فهل يمكن لنا أن نؤمن بوجود هذه الخاصية في معزل عن أقطاب العلمية التواصلية؟ فلا شك أننا حينما نتحدث عن البناء والاستمرارية في الخطاب نفترض وجود عملية تواصلية أساسا.

كما أن الخطاب الحجاجي لا يشتغل إلا في مواطن الاختلاف، هذا الاختلاف الذي يعد سمة اجتماعية طبيعية سيؤدي إلى وجود طرفين كل يدافع عن ذاته وآرائه، ولا يتم هذا إلا من خلال العملية التواصلية، إضافة على ذلك فإن هذا التفاعل يستند كما ذكرنا إلى وجود أقطاب تواصلية يتشكل من خلالها الخطاب، ويتضمن من خلالها.

تطبيق:

قال عروة بن الورد:

قالَت تُماضِرُ إِذ رَأَت مالي خَوى وَجَفا الأَقارِبُ فَالفُؤادُ قَريحُ

ما لي رَأَيتُكِ في النَدِي مُنَكِّساً وَصِباً كَأَنَّكَ في النَدِي نَطيحُ

خاطِر بِنَفسِكَ كَي تُصيبَ غَنيمَةً إِنَّ القُعودَ مَعَ العِيالِ قَبيحُ

المالُ فيهِ مَهابَةٌ وَتَجِلَّةٌ وَالفَقرُ فيهِ مَذَلَّةٌ وَفُضوحُ

قد قراءة للأبيات من خلال ثانية الحجاج والتواصل.

من خلال قراءة الأبيات والتوغل في معانيها نلاحظ أن زوجة عروة تقوم على دفع زوجها نحو التمرد، التمرد على واقعه الذي ترفضه له، إنها تدفعه إلى الخروج من حالة العجز الذي سيطرت عليه بعد زوال ماله وفقدان أحبته وأقاربه، وجلوسه وسط المجلس منكسا رأسه جالسا جلسة الأولاد، خاطر

بنفسك يا عروة حتى تصل إلى غنيمة تجعلك صاحب مال وجاه؛ فالمال يكسبك مهابة ومكانة وجلالا، والفقر يورثك الفقر الفضيحة والذل.

إن عنصر التواصل واقع فعلا إذ يصرح الشاعر بدءا بذلك في قوله: قالت تماضر، فقد وقع بينها حوار حول حالته التي وصل إليها بعد فقدان ماله وجفاء أقاربه له.

إن هذه المقطوعة تحمل في ثناياها أحد أهم القيم الاجتماعية وهي التكسب والتقوت، العمل، والاسترزاق، وتدعو إلى رفض الفقر وألا يكون المرء عالة على مجتمعه وأهله. وهذا القيم التي حاولت زوجة عروة أن تدفعه نحوه إنما كانت من خلال إعمال الحجج وذلك حين استخدمت الرابط الحجاجي التعليلي كي، خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة، فهي تحاول أن تقنعه بغاية المخاطرة، فلا يعقل أن يخاطر الرجل بنفسه ويدفعها إلى الموت في البراري الموحشة، ولكن حين قدمت له السبب وهو إصابة الغنيمة كان ذلك أدفع للفعل.

كما أنها قدمت له ذما في الشطر الثاني وهو إن القعود مع العيال قبيح تخبره بأن الجلوس مع الأولاد فعل غير مستحسن منه، فهو رجل عليه أن يكون مكافحا في الحياة لا ولدا جلسا مع لهوه، وهذا الذم هو محاولة للضغط على مشاعره التي تأبى حقيقة أن يوصف بها عروة الشاعر والفارس.

تدعو الأبيات إلى الوقوف بعزة وطلب الغنائم والأرزاق والتعرض لها وعدم الجلوس والاكتفاء بالمذلة والعويل، فلا بد أن يطلب المرء رزقه ليقوم به حاله

ويصلح بها شأنه. وهذه حجج وظفت للإقناع المستمع والتأثير فيه ويمكن أن نقدم هذه الحجج وفق السلم الحجاجي التالي:

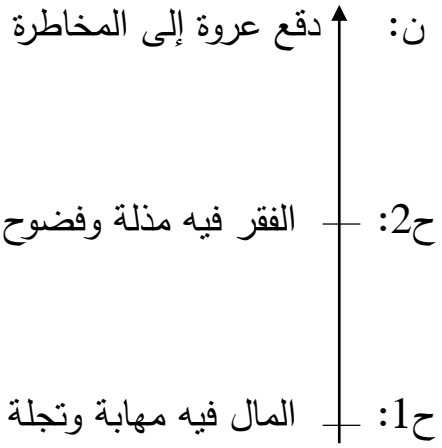

إن الحجة ح01 حجة أضعف من ح02، وذلك أن تقديم المال وإن كان فيه المهابة غير أن قلته لا تفقد المهابة كليا، وذلك أن الرجل مع قلة المال يمكن أن يحفظ كرامته ولكن وجوده مهابة، فلا ينفي هذا ذلك، ولكن استعمال الحجة ح02 وهي الفقر كان دهاء من زوجة عروة، إذ المعلوم أن الفقر يوهن الرجل ويضعف شوكته، ويذهب هيبته، خاصة إذا علمنا الظروف الاجتماعية التي نشأ فيها هذا الخطاب.